الفصل التاسع

ميزان العقائد في الأديان

مما تقدم يمكن للقارئ أن يوازن بين العقائد في جميع الأديان، وفي هذا التوازن ومن المقارنة يستطيع أن يدرك أن العقيدة الإسلامية جمعت بين حياة المسلم في دار ممره ودار مقره، وأن أعز ما يفخر به المسلم أنه حر في عقيدته التي بنيت على التفكير المطلق، والتأمل الحر، والبحث عن الحقائق بدون خضوع للهيكل وطقوسه، أو خشوع للصنم وقرابينه، أو وقوف أمام المذبح ومحرقاته. فلم يكن دينه تفضلاً من كاهن يمن عليه به، أو سجوده لأيقونه، أو ركوعه لوثنه، كما لم تكن عبادته وقفًا على شعائر أو مراسم داخل المعبد مدى حياته.

وقد كانت الأديان قبل الإسلام عبارة عن كهانة، وطقوس، ومراسم، ورموز كلها تشير إلى الوثنية بكل معانيها، كما كانت تأخذ بيد صاحبها إلى تعدد الآلهة، وتعدد الكهنة، وتعدد الشعائر مما انتهي بأهل الأديان إلى حالة يرثى لها من الجمود الذي أرغمهم وتغلب على فطرتهم حتى تخلوا عن التفكير السليم؛ فعظموا الصور والتماثيلو وربطوا كل تصرفاتهم التعبدية بالمعبد والكاهن، فلم يكن لهم أن يبرموا أمرًا من أمور الدين دون أن يكون

الهيكل وكاهنه صاحبي الأمر، والشورى، والكلمة الأخيرة في هذا الرأي، حتى أصبح المتعبد وكأن المعبد لازمة من لوازم حياته العقائدية، حيث لا تتم له عبادة، ولا يستقيم له أمر، ولا يصح له وصل، ولا يملك شفاعة عند الآلهة، ولا تستجاب له دعوة دون الكاهن.

وقد اتخذ الكهنة من عقيدة الناس وسذاجتهم طريقًا للتجارة بالأديان، وأنشأوا القاعدة القديمة المشهورة التي جعلت الكاهن نائبًا لله، والملك ظل الله في أرضه. بل ألّهوا الكهنة أنفسهم تأليهًا تامًا، وطالبوا شعوبهم بعبادتهم، ففي البداية كان الإله واحدًا، ثم الإله ممثلاً في قوى الطبيعة ومظاهرها، ثم حل الإله في الكهنة والملوك أحياء وأموات.

فمن الأديان السابقة يمكنك أن ترى الهنود مثلاً وقد اعتقدوا أن الإله الذي لا يرى نحت اسم براهما، ثم تطور إلى الثالوث (براهما- فشنو- سيفا)، ثم تطور إلى عبادة الكهنة، ثم عبد الناس المقربين إلى الكهنة. وعلى هذا المثال يمكن معرفة العبادة في الأديان الأخرى حيث أنها تشابهت في العقيدة.

ثم جاءت الأديان الكتابية مبعوثًا بها رسل من عند الله مبشرين ومنذرين، ولكن الكهنة اليهودية، والفريسيين، والأحبار، والصديقيوم – كما هو وارد في التوراة- شوهوا جلال الدين، واخترعوا وابتدعوا مما أخرج الدين السماوي الجليل إلى حلبة المنافسات على النبوة والتجارة التعبدية حتى انتهوا إلى عبادة الأصنام والأوثان.

ثم جاءت المسيحية تدعو إلى الفضيلة في أسمى مراتبها ومعانيها، ثم خرج بها الكهنة ورجال الأكليروس إلى شرك ظاهر يتمثل في التعدد الممقوت الذي يكمن وراء التثليت وتأليه القديسين والشهداء، ثم انحدروا بها إلى حضيض العقيدة، فأصبح القسيس وكيل الله على الأرض. ما يحله القسيس في الأرض يحله الله في السماء، وما يربطه على الأرض يربطه الله في السماء، حتى تحولت المسيحية التي جاء بها المسيح لتخليص العالم من ترهات اليهود عن طريقها الذي رسمه الله إلى طريق رسمه القساوسة والكهنة.

ولما بعث الله محمدًا عليه الصلاة والسلام بدينه الإسلام، وشهادة الوحدانية بغير حدود، دين التحرر الوجداني من ربقة الاستعمار الكهنوتي، وخرج المصباح من تحت المكيال فظهرت الحقائق واضحة، وطمست الرموز والطقوس، عرف المسلم أن الله معه أينما حل، وأينما ارتحل، وحيثما كان لا يفارقه لحظة في أي مكان أو زمان، يناجيه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه: (وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي ولْيُؤْمِنُوا بِي) البقرة ١٨٦.

الله قريب من عبده سواء كان العبد في يقظة أو منام، وأن عبادة المسلم دائمًا لله سواء كانت في الفيافي والقفار، أو على ظهر السابحات في البحار والأنهار، أو على رؤوس الجبال، أو في جوف الأرض، أو في أجواء الفضاء. تلك عبادة عبد الله الواحد القهار الذي علّم عباده (فأينما تولوا فثم وجه الله). وبجانب هذا يعلم العبد تمام العلم ويوقن تمام اليقين أن

عبادته موجهة إلى رب واحد لا شريك له: (قُلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ) سورة الأنعام ١٦٢، ١٦٣.

والمسلم في صومه وحجه وزكاته لا يحتاج إلى كاهن يبارك له تلك العبادات، أو يرسم له طريقها، فهو يعلم كيف ولمن يؤديها، لأنه بفطرته عرف من خلقه ورزقه، ومن إليه يرجع الفضل كله. ويدلك على هذا نشأة الإسلام في بيئة بدوية بدائية بعيدة عن الثقافة والمدنية، فكانت أحكامه أقرب إلى البساطة الفكرية، فاستساغها أصحاب القلوب السليمة بعد أن سئموا الرموز والطقوس، كما تذوقوا حلاوة خواص الإسلام التي يمتاز بها عن غيره من الأديان، والتي تتلخص في عدم اعتراف هذا الدين الجديد بطبقة من الكهنة التي تحتكر شعائره، وعلاقة الفرد فيه متصلة بخالقه مباشرة دون وسيط، والأعمال بالنيات "ولكل أمرئ ما نوى".

وكذلك النبي مُحَمَّد الذي بعثه الله رحمة للأمم كافة، حيث أتى بدين الإسلام لم يدع أنه فوق البشر، ولم يذكر الله في التنزيل أنه كان شيئًا غير إنسان، فما هو إلا بشير ونذير، ورسول قد خلت من قبله الرسل، ومذكر ليس بمسيطر. ويكفي المسلم أن يقرأ في القرآن (ومَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ)، (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)، (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ إلاَّ مَن تَوَلَّى وكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ العَذَابَ الأَكْبَرَ).

وليس بمستغرب على الإنسان أن يحدد مركز النبي ووظيفته، وذلك درءًا للشبهات التي وقع فيها رجال الدين، وكانت سببًا من أسباب انهيار الأديان، وانصراف الأتباع عن دياناتهم، والبحث عن أديان أخرى، حتى جاء الإسلام فدخل فيه الحائرون أفواجًا، وسبحوا بحمد ربهم فوجدوه غفورًا توابًا.

وتأكيدًا لسلامة العقيدة لم يترك القرآن فرصة للمتلاعبين، حيث لم يجعل عبء الرسالة على مُحَمَّد وحده، أو على أحد دون أحد من المسلمين، بل طالب الأمة الإسلامية جمعاء أن يكون كل فرد فيها رجل دين. فقد أمر الإسلام جميع المسلمين، لا علماء الدين فقط، بأن يكونوا دعاة آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) سورة آل عمران آية ١١٠. وقد قال نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام مكلفًا أتباعه بأن يقف كل منهم جنديًا يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر (من رأى منكم منكرًا فلغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه. وهذا أضعف الإيمان).

ورجل الدين في الإسلام مهما بلغت منزلته، ومهما بلغت به التقوى، ومهما وصل إلى الورع لا يتعدى أن يكون عبدًا لله، لأنه له في رسول الله أسوة حسنة. حيث أنه لا يمكن أن يكون أعظم من مُحَمَّد الذي أتى بهذا الدين ووصفه الله أنه عبد من عباده (سبحان الذي أسرى بعبده...)، كما أن رجل الدين لا يمكن أن يأخذه الغرور فيدعى أنه صاحب الدين؛ ولذا

كانت له الحصانة حيث أوجب عليه أن يقول في قنوته (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده وسوله).

كيف لرجل الدين وهو يشهد أن صاحب الرسالة ﷺ عبد الله ورسوله يظن أنه المسيطر على هذا الدين، أو أنه يمتاز عن باقي الأمة الإسلامية في المعاملة أمام الله، والكل عند الله على قاعدة واحدة (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) سورة الحجرات آية ١٣.

وقد حرم الإسلام على المسلم الإيمان بالوساطة، أو الشفاعة (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ولا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ ولا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ) سورة البقرة آية ٢٥٥.

كما حرم الإسلام التوسل والدعاء لغير الله (والَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ويَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ واللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ). سورة فاطر ١٣–١٥.

وقد أشرك الله المسلمين جميعًا في الدعوة وجعلهم خلفاء في الأرض، يبشرون بدعوة الله، ويدعون إليه على بصيرة كما دعاهم محمد من قبل (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي). سورة يوسف ١٠٨.

وليس في الإسلام خطيئة موروثة تحتاج إلى التكفير عنها بصلب نبي أو ابن لله، بل آمن المسلم أن كل إنسان مسئول عن ما اقترفه، يحاسب عليه يوم (لاَّ يَجْزِي والِدٌ عَن ولَدِهِ ولا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن والِدِهِ شَيْئًا)، (يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وأُمِّهِ وأَبِيهِ وصَاحِبَتِهِ وبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)، (وكُلَّ إنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا).

وبالميزان تخرج كفة العقائد في الإسلام راجحة، فالله الذي يؤمن به المسلمون إله واحد لم يكن له شريك في الملك سبحانه وتعالى عما يشركون، وأن الإسلام قد أوضح الطريق أمام المسلم إلى عقيدة صحيحة في الذات الإلهية، كما أرشده إلى عقيدة سليمة في الهداية النبوية، وربى فيه عقيدة الإنسانية لا تعلوها عقيدة، وأن أحكام الإسلام لا تعوق المسلم ولا تقيده بقيود مخترعه أو أغلال مصطنعة.